المبحث الأوّل
نزول القرآن وتنزيله

تنزلات القرآن : بعض آيات القرآن الكريم قررت نزول القرآن في شهر رمضان :

﴿**شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس . . .**﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٥] .

﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ [سورة القدر ؛ الآية : ١] .

وبعضها قررت تنزيله منجماً (خلال ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة) :

﴿**وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلاً**﴾ [سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٦] . في حين أنا نعلم أن الرسول الأمين ﷺ بعث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب ـ على أقوى الروايات ـ وإن أول ما نزل من القرآن هو ما صاحب البعثة الشريفة ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿**بسم الله الرّحمٰن الرّحيم إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . . .**﴾ [سورة العلق ؛ الآيتان : ١ ـ ٢] . وبعدها نزلت سورة المدثر .

ومنها يتبيّن : أن القرآن أُنزل في ليلة القدر ، وتمّ تنزيله طيلة

البعثة النبوية ، وإن أول ما نزل من القرآن هو في شهر رجب ، فكيف يمكن التوفيق بين ما يبدو من تعارض ؟ .

لا بدَّ من التفريق بين معنى الإنزال والتنزيل . والأصل في (النزول) هو الورود على المحل من علوٍ ، والعلو كما يكون مكانياً : فيقال علا الطائر إذا ارتفع عن مستوى الأرض ، فقد يكون شأنياً : فيقال علا مستوى الطلبة ـ مثلاً ـ حين تزداد معارفهم ويرتفع مستوى معلوماتهم .

فللإشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، تلقى القرآن الكريم من جهة عليا هي الله تعالىٰ جاء التعبير عن وحيه بالنزول .

على أن هنا فرقاً بين (الإنزال) و (التنزيل) رغم دلالتيهما على الورود التدريجي .

وحين يتضح معنى كل من الإنزال والتنزيل فلا يبقى تعارض ، ويكون معنى قوله تعالىٰ : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ في رأي عدد من العلماء ، هو النزول الدفعي للقرآن الكريم ، أو الإجمالي ، بمعنى (أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعدها منجماً) قال الزركشي : وهذا القول أشهر وأصح ، وإليه ذهب الأكثرون[١] .

وقال القسطلاني (كما أنه كان في نزوله مع أفضل الملائكة في ليلة مباركة إلى سماء الدنيا جملة واحدة في بيت العزة خيرات متزايدة)[٢] .

ويبدو أن الهدف من إنزال القرآن دفعة واحدة ، للمرة الأُولى ، هو تنوير النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمعارف الإلٰهية الكبرى ، وأسرار الكون

---

(١) البرهان ج ١/٢٢٨ .

(٢) لطائف الإشارات ج ١/٢١ .

العظيمة ، ليمتلىء قلبه ﷺ بالعلوم القرآنية ، والحقائق الكونية الجليلة ، قال الزنجاني : (على أنه يمكن أن نقول بأن روح القرآن ، وهي أغراضه الكلية التي يرمي إليها تجلت لقلبه الشريف ، في تلك الليلة ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [سورة الشعراء ؛ الآية : ١٩٤]) .

فيكون معنى قوله تعالىٰ : ﴿إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾ [سورة الإنسان ؛ الآية : ٢٣] . وقوله سبحانه : ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلاً﴾ [سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٦] . ونظائرها من الآيات يفيد (التنزيل) لا (الإنزال) ، وهو تنزيل القرآن منجماً وبصورة تدريجية . قال ابن عباس : (أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة[1] ، وعنه أيضاً أنه قال: في ﴿الذي أُنزل فيه القرآن﴾ نزّل جبرائيل بالقرآن جملة إلى السماء الدنيا . . . ثم نزل به بعد ذلك على محمد ﷺ ، يوماً بيوم ، آية وآيتين وثلاثاً ، وسورة . . .)[2] .

ولعل تنزيل القرآن تمّ لعلل منها : تربية الأُمة وترويضها وهدايتها وتمكينها من التطبيق والالتزام بالأحكام وما إليه مما سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

ويتبيّن أن القرآن الكريم قد أُنزل دفعة إجمالية على الرسول ﷺ أو إلى السماء الدنيا . ثم تدرج نزوله طيلة حياته بعد البعثة .

ومن هذا البيان نفهم قوله تعالىٰ : ﴿الر كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير﴾ [سورة هود ؛ الآية : ١] . فإنها تشير إلى القرآن حالة كونه محكماً وقد أنزله الله تعالىٰ على الرسول ﷺ دفعة

---

(١) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٢ .

(٢) تنوير المقباس : تفسير ابن عباس ، مطبوع مع الدر المنثور للسيوطي ج ١/٨٦ .

واحدة ثم فُصّل تفصيلاً حين تنزّل عليه آيات متفرقات خلال مدة الدعوة

واحدة ثم فُصّل تفصيلاً حين تنزّل عليه آيات متفرقات خلال مدة الدعوة النبوية .

ومنه يظهر أن الرسول ﷺ حين تنزل عليه الآيات والسور كان على علم سابق بمحكم القرآن ، لنزوله عليه جملة ودفعة واحدة . وهذا المعنى هو ما يلوح من قوله تعالىٰ : ﴿**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربِّ زدني علماً**﴾ [سورة طه ؛ الآية : ١١٤] . فإنها وأمثالها من الآيات (ظاهرة في أن الرسول ﷺ كان له علم بما سينزل عليه فنهي عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي)[١] .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ، من بيان تنزيلات القرآن ، ما ورد عن ابن عباس أنه سأله ابن عطية الأسود فقال : وقع في قلبي الشك ، قوله تعالىٰ : ﴿**شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن**﴾ . وقوله تعالىٰ : ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ . وهذا نزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة ومحرم وصفر وربيع !! فقال ابن عباس : إنه أُنزل في رمضان ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم [٢] .

المبحث الثاني
كيفيات الوحي

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين ﷺ كما نزلت الرسالات السابقة على الأنبياء : وحياً .

والوحي لغة : الإعلام الخفي السريع .

واصطلاحاً : الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله تعالىٰ برسله

---

(١) الطباطبائي : تفسير الميزان ج ٢/١٢ وما بعدها .

(٢) السيوطي : معترك الأقران في إعجاز القرآن ج ٢/٢٠٢ .

وورد أيضاً في (النظم الإسلامية) : (لقد نزل وحي القرآن إلى السماء السفلى ومن ثم نقل إلى الرسول بحسب الوقائع منجماً) . . . غود فروا ، ص ٧٢ .

وأنبيائه لإعلامهم ألوان الهداية والعلم . وإنما جاء تعبير الوحي عن هذه الطريقة باعتبارها خفية عن الآخرين ولذا عبر الله تعالىٰ عن اتصاله برسوله الكريم بالوحي ، قال سبحانه : ﴿**إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . . .**﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ١٦٣] .

ولقد وردت كلمة الوحي في القرآن وأُريد بها معان كثيرة ، لسنا بصدد استقصائها ، والذي بصدده هو ورودها بمعنى طريقة اتصال الله تعالىٰ بمن يصطفي من الناس .

ولهذا المعنى للوحي ثلاثة صور :

الأُولىٰ : إلقاء المعنى في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو النفث في روعه ، بحيث يحسُّ بأنه تلقاه عن الله تعالىٰ . كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : (إن روح القدس نفث في روعي . . .) .

الثانية : تكليم الله النبي من وراء حجاب، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة فسمع نداءه ﴿. . . **وكلم الله موسى تكليماً**﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ١٦٤] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الثالثة : أن يلقي ملك الوحي المرسل من قبل الله تعالىٰ إلى أحد أنبيائه ، ما كلِّف بإلقائه إليه ، سواء أكان هذا الملك على هيأته الملكية ، أم على هيأة رجل : (كما في الصحيح : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)[1] .

ولقد حصرت الآية التالية هذه الصور الثلاث بقوله تعالىٰ :

﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاَّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم**﴾ [سورة الشورىٰ ؛ الآية : ٥١] .

كما تدل الروايات الواردة أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تلقى الرسالة الغرّاء

---

(١) السيوطي : معترك الأقران ج ٢/٢١٥ ، الإتقان ج ١/٤٤ .

وآيات وسور القرآن الكريم وحياً عن طريق الملك جبرائيل أحياناً ، وأحياناً كثيرة أخرى بمخاطبة الله تعالىٰ له مباشرة . ففي الحديث أن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام سئل عن الغشية التي كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكانت عند هبوط الأمين جبرائيل فقال : لا وإنما ذلك عند مخاطبة الله تعالىٰ إياه بغير واسطة .

المبحث الثالث
أوّل ما نزل من القرآن وآخره

باستثناء النزول الإجمالي للقرآن الكريم ، وسواء قلنا بنزوله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محكماً إجمالاً ، أو نزوله إلى السماء الدنيا ، فإن تنزيل القرآن بدأ بسورة العلق في مكة . فعن أبي عبد الله عليه السلام [١] قال أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿بسم الله الرّحمٰن الرّحيم إقرأ باسم ربك الذي خلق . . .﴾ .

وقال الزنجاني[٢] : الصحيح أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالىٰ : ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق . . .﴾ .

وآخر ما نزل من السور ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾[٣] . وقال اليعقوبي : «وقيل آخر ما نزل من الآيات ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة . وكان نزولها يوم النص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بغدير خُم»[٤] .

وقيل[٥] آخر ما نزل قوله تعالىٰ : ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى

---

(١) انظر مجلة رسالة الإسلام، بغداد ٩ و ١٠ السنة الثانية ص ٢٩ .
(٢) الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٣٠ .
(٣) الزركشي : البرهان ج ١/ ٢١٠ .
(٤) تاريخ اليعقوبي : ج ٢/ ٣٥ .
(٥) الطبرسي : مجمع البيان ج ٢/ ٣٩٤ ، النيسابوري : أسباب النزول ص ٩ .

الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨١] . قال الماوردي[١] هذه الآية نزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى . وقيل آخر آية نزلت آية تحريم الربا[٢] .

هذا ومن المؤكد ، أن اختلاف الروايات في آخر ما نزل من آيات القرآن ، سببه هو غلبة ظن الرواة ، واجتهاداتهم، فكل منهم يروي آخر ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قبيل مرضه ، ثم فارقه . كما يحتمل أن تنزل الآية فيتلوها الرسول مع ما بعدها مما سبق أن نزل ، لتكتب معاً فيظن السامع أن ما يتلوه الرسول هو آخر ما نزل .

وكانت الآيات تنزل طيلة الحياة النبوية بعد البعثة ، لا على تسلسلها الوارد في المصحف المدون ، فلربما نزلت آية أو بضعة آيات من سورة ، ثم نزلت آيات أُخر من سورة أُخرى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم من الله تعالىٰ يلحق الآيات بسورها ، فيقول :

(ألحقوا الآية كذا بالسورة كذا . . .) قال ابن عباس : كان جبرائيل إذا نزل على النبي بالوحي يقول له ضع هذه الآية في سورة كذا في موضع كذا [٣] .

ودلّ استقراء الأحاديث ، أن أكثر القرآن نزل مفرّقاً[٤] وأن الملك الأمين كان يقرىء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما نزل من القرآن الكريم كل عام ، وأن جبرائيل عرض القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتين في العام الأخير من حياته الكريمة[٥] .

---

(١) الزركشي : البرهان ج ١/١٨٧ .
(٢) المصدر نفسه ج ١/٢١٠ .
(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢/٣٦ .
(٤) الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٣٢ .
(٥) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٣ .

المبحث الرابع
التدرّج في تنزيل القرآن الكريم

تمّ تنزيل القرآن الكريم وفق منهج الإسلام في تغيير المجتمع البشري ، وطبقاً لفطرة الإنسان . وإن هذا التوافق بين تنزيل القرآن منجماً من جهة ، وبين طريقة الإسلام التدرجية في تغيير المجتمعات من جهة ثانية ، وبين سنة الله تعالىٰ في تغيير المجتمعات التدريجي ، لهو آية من آيات وحدة مصدر الكون والحياة والإنسان ، كما فيه دلالة قطعية على أن مصدر القرآن هو خالق الإنسان ، وإلاّ كيف حدث هذا التوافق ، وتمّ نقل المجتمع البشري من حضيض ما آل إليه أمره إلى المستوى الإنساني اللائق الذي شهده العالم في ظل سيادة الإسلام العظيم . . .

لقد كان لتدرُّج تنزيل القرآن أثر بالغ في نشر الدعوة الإسلامية وسنبحثه في المطلب الأول ، كما أن هذا التدرج في التنزيل تمّ لحكم تخص القرآن والرسول والمكلفين من الناس وسنبحثها في المطلب الثاني .

المطلب الأوّل
أثر تدرُّج تنزيل القرآن
في نشر الدعوة الإسلامية

إن التغييرات الاجتماعية ليست عملية (ميكانيكية) بالنسبة للفرد والمجتمع بل هي حركة (ديناميكية) يتغير بموجبها المحتوى الداخلي للإنسان ، فتتغير بذلك المظاهر العامة لحياة المجتمع . لذلك فإن أهم شرط من شروط نجاح أية فكرة تغييرية ، أن تنفذ إلى فطرة الإنسان ، وأن تكون متساوية معها ، غير متنافرة مع متطلباتها ، وحاجاتها الضرورية ، وإلاّ فنصيبها الفشل العاجل أو الآجل .

ولقد عشنا ، وسمعنا كثيراً من (الأُطروحات) التغييرية التي تطرح في الساحة الإنسانية أملاً في أن يؤمن بها الفرد ، وتسود الجماعة ، ولكن سرعان ما تغدو فقاعة صابون تنجاب بأول هزة ، أو أن تبقى نظريات مجردة تحتجنها بطون الكتب . . .

ومن الجلي أن (الأُطروحة) الإسلامية مدهشة للغاية ، من حيث ميزاتها الذاتية ، وآثارها التطبيقية . فإنها في عمقها التشريعي وشمولها لكل ألوان النشاط الإنساني ، الفردي والجمعي ، وعلى كل صعيد من جهة ، وسرعتها الخارقة التي استطاعت خلالها أن تجسّد عقائدها وتشريعاتها ، وتمثل قيمها ومثلها، وتحقيق أهدافها وأغراضها ، من جهة أُخرىٰ ، قد تميزت بميزات أفردتها عن سواها ، وسجلت في هذا المجال نصراً لم تشهد مثيله الإنسانية . . .

ولم تكن (الطريقة) الفريدة التي مارستها الرسالة الإسلامية في تغيير المجتمع تشوبها شائبة من شوائب (العفوية) أو (الارتجال) أو (الاعتباط) ، وإنما كانت مقدرة أحسن تقدير ، ومرسومة من قبل العليم الخبير ، ولهذا أثمرت للبشرية أسمى حضارات كوكبنا الأرضي .

ولو تدبرنا طريقة الدعوة الإسلامية لوجدناها أخذت بالتدرُّج في ثلاث مجالات :

الأول ـ التدرج في موضوع الرسالة :

حيث بدأ الإسلام بتغيير عقائد الناس وأفكارهم أولاً ، ثم راح يضع لهم القوانين والتعاليم ، التي تنظم الفرد والمجتمع ثانياً ، وذلك لأن الإنسان يسهل عليه أن يغير فكرة سبق أن آمن بها ، وأن يقتنع بفكرة جديدة قام الدليل على رجحانها ، في حين يعسر عليه ويشق أن يغير تعاملاً سلوكياً سار عليه واعتاده . وهذه (القضية) واضحة من تدبر طبيعة الآيات التي نزلت في مكة فإنها : عقائدية بصورة عامة ، أما الآيات التي نزلت بعد الهجرة فإنها : تشريعية عملية بصورة غالبة .

الثاني ـ التدرج في نشر الرسالة :

حيث باشر الرسول ﷺ رسالته الكريمة بدعوته عشيرته الأقربين ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ثم اتسعت الدعوة فبلّغها للناس من حوله ﴿فاصدع بما تؤمر . . .﴾ ثم راح يخاطب الملوك والرؤساء في العالم[١] يعرض عليهم الإسلام باعتباره رسول الله إلى الناس جميعاً .

ومن الجدير بالذكر والتأكيد : أن طبيعة رسالة الإسلام كانت منذ البداية وبالأصل (للناس جميعاً) حتى يوم القيامة ، ولكن التدرج وقع في مباشرة الرسالة ، كطريقة طبيعية ومضمونة النجاح . وليس الأمر كما يدعي بعض المستشرقين ، من افتراءاتهم ، يرمون بها رسول الله ﷺ من أنه لم يكن يفكر أول الأمر بالناس وبالدولة ، وإنما كان قصده أهله وعشيرته ، وحين اتسقت له الأمور ، وسّع رسالته ونشر دعوته وأقام دولته . . . فإن هذه الفِريَة مردودة من أساسها وواضحة البطلان بنصوص القرآن الكريم .

الثالث ـ التدرّج في الأساليب :

حيث بدأ رسول الله الدعوة : بالقول اللين والإرشاد والموعظة الحسنة . ثم ثنى بالمواقف السلبية والمقاطعات السلمية ، والنهي عن الركون إلى الأعداء ، أو موالاة الجاهلين ، وأعداء الإسلام . ثم أردف ذلك بمقاومة المعتدين ، وجهاد من يقف حائلاً دون حرية الرسالة الغراء في دعوة الناس إليها . وهذا التدرج ظاهر من آيات التصبر والتسلية التي كانت تنزل على الرسول ﷺ لتسليته عما يعاني من اضطهاد قريش . ثم أذن الله تعالىٰ بقتال من يقاتل المسلمين فمارس رسول الله ﷺ الدفاع الشرعي لحماية المسلمين من العدوان وإتاحة المجال لممارسة

---

(١) راجع كتابنا التفسير : فصل التنظيم الدولي ، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء .

التبشير بالإسلام .

لقد كان لهذا التدرج في مجالاته الثلاث أبلغ الأثر في شمول الإسلام للعالم ، وفتحه للقلوب قبل الأقطار ، ودون أية مقاومة شعبية تذكر ، في أكثر البلدان التي حررها الإسلام .

وإن الطريقة التدرجية التي مارس الإسلام بموجبها دوره في الهداية والتنظيم الواسع الشامل ، ليجسد حقيقة ناصعة ، هي أن الإسلام التشريع الأصلح والأمثل للإنسان باعتباره (دين الفطرة) : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [سورة الروم ؛ الآية : ٣٠] .

وإن هذه الطريقة كانت نتيجة حتمية لنزول القرآن منجماً . إذ إن من الواضح لو نزل جملة ، لوجب تكليف الناس به دفعة واحدة . ولكان الأمر على غير ما حدث . ولكن حكمة الباري عزّ وجلّ ولطفه ورحمته بالناس ، كل ذلك يسَّر على الناس الأمر وضمن للرسالة النجاح والانتشار السريع .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المطلب الثاني
حِكَمُ تدرُّج تنزيل القرآن

على ضوء ما سبق بيانه ، نلمس أن التدرج في التنزيل جاء منسجماً مع طبائع المجتمع ، ومقرراً أسلوب الإسلام في العمل الاجتماعي ، لا سيما وأن القرآن يمثل المصدر الأول للتشريع الإسلامي .

ولم يكن هذا التدرج إلاَّ لحكم إلٰهية بالغة ، اقتضتها مشيئة الله تعالىٰ وأحاط بها علمه الذي أحاط بكل شيء . ووضع لكل شيء قدراً . ونحن وإن كنا نجهل تلك الحكم بحقائقها ، غير أنا حين نذكر

قدراً . ونحن وإن كنا نجهل تلك الحكم بحقائقها ، غير أنا حين نذكر

بعضها فإنما نذكر ما وقفت عليه عقولنا وأدركته أفكارنا ، ودون أن ندعي أن ما ندركه هو الحقائق الشرعية الثابته القطعية بل هي حِكم راجحة ظاهرة .

ويمكن تصنيف هذه الحِكم إلى ثلاثة أصناف : حكم تخص الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخرى تخص القرآن ، وثالثة تخص الناس :

أولاً ـ حكم تخص الرسول (ص) :

١ ـ إظهار عظمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

إن نزول القرآن جملة في شهر رمضان في ليلة القدر ، وتردد الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لدن البعثة المباركة حتى وفاته تفصح عن عظيم مكانته عند الله تعالىٰ ، وسمو منزلته ، وجليل رعاية الله تعالىٰ له وعنايته به . لأن الحبيب يكثر من ملاقاة محبه ويزيد من تردده عليه .

٢ ـ تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بشر . وقد أنيطت به مهمة تحويل مجرى حياة البشرية ، تحويلاً يستمر إلى يوم القيامة ، وإرساء قواعد حضارة تبقى صالحة كرّ الدهور ، وحمل رسالة كتب الله تعالىٰ على نفسه أن يظهرها ، وينصرها على الدين كله .

ومع عظمة المسؤولية الملقاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نجده عديم المال فاقد الأنصار ، لا يملك من الوسائل التغييرية ، إلاّ أصالة الرسالة التي يحملها ، وقوّة الإيمان الذي ينطلق منه ، فليس معه أحد إلاّ الصفوة من أهله وعشيرته ، أما سائر أفراد عشيرته وجميع الناس حوله ، فيقفون وجهاً لوجه أمام دعوته ، بكل ضراوة ، وبشراسة لا توصف .

ولا غرو أن مثل هذه المهمة صعب جداً ، بل هو فوق طاقة البشر . فكان لا بد من إمداد غيبي مستمر ، حتى يكمل الدين ، وتتم النعمة ، ويسود الإسلام . وكان هذا الإمداد إسعافاً ونجدة إلهية ، تربط

جنان الرسول ﷺ بآية تسليه أو بتأكيد النصر له ، كلما ادلهم الخطب ، واعصوصب الأمر .

ولطالما كان الملك جبرائيل ، ينزل إليه ﷺ لتسليته : ﴿**واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً**﴾ [سورة المزمل ؛ الآية : ١٠] ، ﴿**واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل**﴾ [سورة الأحقاف ؛ الآية : ٣٥] . ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون**﴾ [سورة فاطر ؛ الآية : ٨] .

وكان الوحي بأمر الله ، يدرأ عن الرسول ﷺ ما يكال له من الأكاذيب والتهم ، ومما نزل في هذا المجال قوله تعالىٰ : ﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . . .**﴾ [سورة الأنعام ؛ الآيتان : ٣٣ ـ ٣٤] .

٣ ـ تيسير حفظ القرآن :

إن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وإن تدرُّج تنزيل القرآن الكريم ، يسَّر عليه حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإنهم كانوا يقرؤون ويكتبون فيمكنهم حفظ ما ينزل إليهم من الشرائع والرسالات .

فلقد كان موسى ﷺ كاتباً ، كما تذكر التوراة التي بأيدينا . فقد جاء فيها : (وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات . لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك . . . فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر)[1] .

وقال الفرّاء في معنى قوله تعالىٰ : ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً**﴾ [سورة الفرقان ؛ الآية : ٣٢] : إنها من قول المشركين . أي هلاّ أُنزل عليه

---

(١) التوراة : سفر الخروج . الاصحاح ٣٤/٢٧ ، ٢٨ .

القرآن جملة كما أُنزلت التوراة على موسى . قال الله : ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ لنثبت به فؤادك ، كان ينزل الآية والآيتين[١] .

(وقيل معنى ﴿لنثبت به فؤادك﴾ أي لتحفظه فإنه ﷺ كان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب ففرّق عليه ليثبت عليه حفظه بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان كاتباً قارئاً فيمكنه حفظ الجميع)[٢] .

(وقال ابن فورك : قيل أُنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب وهو موسى . وأنزل القرآن مفرّقاً لأنه نزل غير مكتوب على نبي أُمي[٣] .

ولقد ساوى الله تعالىٰ نبينا بسائر الأنبياء في إنزاله القرآن جملة[٤]، وفضل رسول الله ﷺ على سائر الأنبياء بتنزيله منجماً مرة أُخرى ليحفظه . إذ إن تردد الوحي في كل ما يستجد من حادثة أشد عناية بالمرسل إليه كما أن فيه ما يبعث السرور في قلب الرسول ﷺ .

والأُمية في رسول الله ﷺ صفة تعلي شأنه وتظهر إعجاز القرآن بجلاء . حيث ان القراءة والكتابة وسيلة للعلم لا غاية بذاتها . وقد جاء رسول الله ﷺ بما لم يأتِ به نبي ولا رسول ولا أحد من قبله ولا من بعده ، من سعة الشريعة الغراء وشمولها وسموها . ولو كان يقرأ ويكتب لما كان هذا الشأن الذي أبهر علماء العالم .

---

(١) الفراء : أبو زكريا يحيى بن زياد ، معاني القرآن ج ٢/٢٦٧ وما بعدها .
(٢) السيوطي : معترك الأقران ج ٢/٢٠٦ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) قال السيوطي : (إن سائر الكتب أُنزلت جملة ، وهو مشهور في كلام العلماء ، وعلى ألسنتهم حتى كاد يكون إجماعاً ، وقد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك ، وقال إنه لا دليل عليه ، بل الصواب أنها نزلت مفرقات كالقرآن . وأقول : الصواب الأول) راجع الأدلة على ذلك : معترك الأقران في إعجاز القرآن ج ٢/٢٠٧
وجاء أيضاً : (أن نزول التوراة على موسى كان على زمان تكليمه . . . متراخياً في أكثر من أربعين سنة) تفسير شبر ، هامش ص ١٢ .